الفصل الثانى

صناعة النسيج

صناعة النسيج

تعتبر صناعة النسيج فى الوقت الحاضر من أهم الصناعات ، كما أنها تعتبر فى نفس الوقت من أقدم الصناعات التى عرفها الإنسان ، فقد اشتهر المصريون القدماء بدقتهم فى صناعة المنسوجات وخاصة الكتانية التى بلغت من الدقة ذروتها .

على أن صناعة النسيج كانت صناعة يدوية حتى أواخر القرن الثامن عشر ، ولقد حدث تطور كبير فى هذه الصناعة فى مطلع القرن التاسع عشر بسبب إستخدام الآلات بدلاً من الأيدى العاملة .

وقد ذاعت شهرة مصر فى المنسوجات قبل ظهور الإسلام ولقد وصلت هذه الشهرة إلى بلاد العرب فى الجاهلية ، ولذلك نجد العرب عندما فتحوا هذه البلاد كانوا يعملون على الإستفادة منها فى هذه الناحية .

ولقد كان من تقاليد العرب وميولهم ما ساعد على تقدم صناعة النسيج على أيديهم فى العصور الوسطى ، فنجد كسوة الكعبة ، ومنح الخلع ، وميلهم الطبيعى إلى التكثير من الثياب وإلى اقتناء الفاخر منها وذلك لإعتقادهم أنها تضفى على من يلبسها قيمة وعظمة ، وكان من شأن هذه العوامل أن تمهد السبيل للوصول إلى درجة الكمال فى هذه الصناعة .

وكان منح الخلع تقليداً عرفه المصريون القدماء . كما عرفه ملوك إيران قبل الإسلام، وقد أحياه فى الإسلام النبى صلى الله عليه وسلم ، وسار على طريقه الخلفاء من بعده ، ومن حيث الميل إلى التكثير واقتناء الفاخر من الملابس فقد زاد عند العرب على أثر تدفق الثروة بين أيديهم من الأقطار التى فتحوها ، فأقبلوا على المنسوجات يسرفون فى اقتنائها ، ويحملون النساج على التسابق فى إجادة نسجها ، وابتداع الأنواع المختلفة منها .

وكانت المنسوجات أيضاً يتصدق بها الخلفاء والأمراء والأغنياء على المحتاجين فى

المواسم والأعياد ، وكانت لها مكانة ممتازة بين صادرات البلاد الإسلامية .

وقد كانت صناعة النسيج فى الدلتا صناعة منزلية ، فكانت النساء يغزلن والرجال ينسجون ، وكان تجار القماش يدفعون لهم أجرهم كل يوم ولم يكن فى وسعهم أن يبيعوا منسوجاتهم إلا للسماسرة الذين تعينهم الحكومة .

وقد كانت تجارة المنسوجات الخارجية تحت رقابة شديدة ، تكاد تكون محتكرة من الحكومة .

ولم تكن دبيق وحدها المركز الهام لصناعة المنسوجات فى مصر فى هذا العصر ، بل كانت هناك مراكز أخرى منتشرة فى البلاد لا تقل أهمية عن دبيق إن لم تفقها ، منها على سبيل المثال كما وردت فى كتب الرحالة العرب ، فاليعقوبى (٢٨٢هـ) ذكر أسيوط وإهناس والبهنسا وبورة وتنيس وشطا والفيوم والقيس وأخميم وابن حوقل (٣٣١هـ) أضاف إلى ما تقدم طما ودميرة وتونة ودبيق والأشمونين . وكرر ذكر البهنسا وشطا وتنيس . وكرر الهمذانى (٣٣٤هـ) ذكر تنيس ودبيق وشطا وأضاف الإسكندرية . وذكر الأصطخرى (٣٤٠هـ) الأشمونين ودمياط .

ولم يحدث فتح العرب لمصر تغييراً يذكر فى حياة القبط ، وقد كان هؤلاء صناعاً مهرة استخدمهم العرب فى العمل بمصانع النسيج الجديدة التى أنشأها العرب وهى المسماة بدور الطراز ، وكلمة "طراز" أطلقت على الشريط المحتوى على كتابة منسوجة أو مطرزة ، وأطلقت أيضاً على الأقمشة المزخرفة بهذه الطريقة ، وأيضاً على المصانع التى تنتج هذه الأقمشة ، وكان لإنشاء دور الطراز فى جميع البلاد الإسلامية أهمية كبرى عند حكام العصرين الأموى والعباسى ، ولقد جرت عادة الخلفاء خلع هذه الثياب على كبار أصحاب الوظائف مرة كل سنة على الأقل ، واعتبرت هذه الخلع بمثابة الأوسمة والنياشين فى العصور الحديثة ، وقد كان ينقش إسم الخليفة فى شريط "الطراز" تسجيلاً لحكمه وسلطانه .

علماً بأن الطراز كلمة إيرانية معربة ، وكان من عادة ملوك إيران قبل الإسلام أن يزينوا ملابسهم بصور الملوك ، وبأشكال معينة تميزاً لها عن غيرها ، وإشعاراً لمن يلبسها بالجاه والسلطان ، وكانوا يخلعون هذه الثياب على حاشيتهم ومن يرضون عنهم.

وقد ورث المسلمون عنهم هذه العادة ، وأول من نقل الطراز إلى العربية من ملوك المسلمين عبد الملك بن مروان الأموى ، ولكن بدلاً من استخدام الصور كتبوا أسماء خلفائهم مصحوبة بصيغة خاصة من صيغ الدعاء أو المدح ، وقد كانت هذه الكتابة تنسج أو تطرز بخيوط من الذهب أو الفضة أو الحرير بلون مخالف للون الثوب ، وقد اتخذ الخلفاء ذلك حقاً لهم وحدهم اختصوا به أنفسهم دون غيرهم ، واعتبروه من علامات سلطانهم ، واعتنوا به عناية خاصة فأنشأوا فى قصورهم مناسج حكومية وأطلقوا عليها إسم دور الطراز.

ولقد ذاعت شهرة دور الطراز فى مصر بما أنتجته من المنسوجات الكتانية والحريرية التى صدرت منها فى العهد الإسلامى إلى البلاد الإسلامية كسوريا والعراق ووجدت بسامراء قطعة نسيج كتانية من القرن التاسع عشر عليها كتابة مطرزة بالحرير الأحمر تدل على أنها صنعت بمدينة تنيس . كما تم تصدير المنسوجات العربية إلى الدول الأوروبية ويدل على ذلك أسماء بعض المنسوجات مثل الموسلين فقد أخذت اسمها من الموصل بالعراق والدمسك نسبة إلى النسيج الدمشقى وفستيان نسبة إلى الفسطاط .

ولقد ورث العصر الأيوبى والمملوكى عن العصر الفاطمى أساليب صناعة الأقمشة ذات الزخارف المنسوجة ولكنها كانت أقل شيوعاً عن العصر الفاطمى .

على أن أقمشة العصر الأيوبى والمملوكى المطرزة كانت أكثر بساطة إذا ما قورنت بأقمشة العصر الفاطمى المطرزة بخيوط الذهب والحرير المختلف الألوان .

ومما هو جدير بالذكر أنه ليس أدل على قوة وحيوية الفن الإسلامى وعظمة

شخصيته من متابعة ابتكاراته التى شملت جميع الفنون وجميع النواحى وجميع العصور . ومن العسير حقاً أن نحصر مميزات هذه الفنون الإسلامية . فقد امتاز كل عصر من العصور بأشكال زخرفية خاصة ، بل إن التطور والإبتكار لم يقتصرا على عهد معين ، أو إقليم خاص، فقد كان لكل فنان شخصيته التى تميزه عن غيره ، وكان لمنتجاته خصائص ينفرد بها .